

معالم النظر المقاصدي في آي الكتاب عند الإمام عبد السلام ياسين منهجا وموضوعا

أ.د محمد رفيع*



الملخص:

يروم هذا البحث تتبع معالم النظر المقاصدي في تفسير آيات القرآن عند الإمام عبد السلام ياسين، وذلك من خلال مبحثين: أحدهما يتتبع منهج الإمام الذي اعتمده في التفسير، والثاني يتتبع نماذج من القضايا المعرفية التي استمدها بمنهجه من القرآن.

Abstract:

This research aims to trace consideration Milestones of Maqasid in the interpretation of Quran at IMaM AbdessaLaM yassine through two topics: the first: foLLow iMaM yassine's Method in his interpretation of the Quran; the second is foLLow ModeLs of cognitive issues.

* أستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة ورئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس - المغرب تاريخ وصول البحث ٢٠٢١\٢\١٨م، وتاريخ قبوله للنشر ٢٠٢١\٣\١٣م.

مقدمة:

لما كان القرآن خطابا ربانيا ختاميا للإنسان قصد هدايته في حياته التي هي أقوم، التزمه المؤمنون تلاوة وتدبرا واهتبل به العلماء تفسيرا وتأويلا واستنباطا من أجل الاستهداء بنوره في حياة الناس أفرادا وجماعة، فتفاوت الناس في الاستمداد من هذا المعين الرباني الذي جمع فأوعى، إنه ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فتفاوت الناس في الاستمداد من هذا الكتاب بتفاوتهم فيما توسلوا به من مناهج التزموها، فمنهم سابق لزمانه فيما استمده غير منحصر في تفاصيل فتن زمانه، ومنهم مقتصر على مدلولات ألفاظه أفرادا لا تركيبا ظاهرة وباطنة، ومنهم دون ذلك . ولعل من الأعلام المعاصرين الذين تميزوا في الاستمداد من كتاب الله تعالى على نحو غير معهود في كثير من استمداداته الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله الذي كان يصدر في كل اجتهاداته التفسيرية والتأويلية والتنظيرية عن نظر مقاصدي نافذ، فنريد من خلال هذا البحث التحقق من دعوى صدور هذا الإمام في تفسير القرآن عن نظر مقاصدي، خصوصا وأن الموضوع بكر غير مطروق فيما أنجز من أبحاث ودراسات علمية في فكر هذا الإمام.

ومن أجل الإحاطة بإثباتات هذه الدعوى اخترنا أن نعالج الموضوع في مبحثين اثنين: أحدهما منهجي والثاني معرفي، وذلك وفق منهج يجمع بين استقراء المادة العلمية من مظانها الأصلية في كتابات الإمام ياسين، ومن مظان أخرى تبعية عند الموجب، وبين تحليل القضايا وتعليل الآراء ومقارنتها بغيرها في سياق التصور العام للموضوع.

المبحث الأول: معالم النظر المقاصدي منهجيا

تتميز منهج الإمام ياسين في النظر في آيات كتاب الله تعالى بالجمع دون تفريق تمثل الموضوع والقول فيه، وذلك في سياق رؤية مقاصدية مبصرة للموضوع وناظمة للمنهج، يمكن رصد هذا المنهج في النظر في الكتاب من المعالم الآتية:

الاحتكام والامتثال للقرآن حالا ومقالات

من المداميك الأولى المؤسسة لمنهج الإمام ياسين في النظر في القرآن تدبرا وتفسيرا واستدلالات واستنباطا تحقق حالة قلبية وعقلية من التفاعل الإيماني مع القرآن للناظر في القرآن امتثالا لمقتضياته واحتكاما لتكاليفه حتى يفتح باب الفهم والعطاء، يقول: «إنما يحتكم إلى القرآن، ويرقي فهمه إلى التلقي عن القرآن، ويحفظ حرمة القرآن، من كان القرآن ربيع قلبه، والنظر فيه قرّة عينه، والامتثال له راحة روحه»^(١).

قد يستغرب البعض من عد هذا النوع من الحالة الذاتية الروحية الممزوجة بالعاطفة قاعدة منهجية في البحث والتفسير، ذلك إن كنا نروم تسطيح معنى المنهج، أما إن كنا نتوخى روح المنهج وعمقه المفضي إلى الإبداع، فلا يمكن تجاوز حالة التفاعل القلبي والعقلي للباحث مع الموضوع، خصوصا إذا تعلق الأمر بالخطاب الإلهي للإنسان عبر الزمان والمكان وفي كل الأحوال، فتلقي الخطاب الإلهي غير تلقي الخطاب البشري من حيث لزوم الإيمان والامتثال في الأول دون الثاني، لذلك ظل الإمام ياسين يلح على هذه القاعدة الإيمانية في تلقي الخطاب القرآني، لأنه أدرك من النص القرآني نفسه أن تفهيم معانيه عطاء من الله ابتداء على شرط الافتقار والاضطرار إليه ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

كما أوجب من الخطاب القرآني أن اكتمال التلقي بقدر اكتمال التلقي عبودية وامتثالا بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٨٢]، وقوله سبحانه في بيان مسالك التلقي: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

فأول خطوة منهجية في حسن التلقي عن القرآن إضمار قصد التبعيد حتى يكون العلم المتلقى نافعاً، فقيمة العلم من حيث هو وسيلة إلى التبعيد كما

(١) ياسين عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ: مطبعة فضالة، المحمدية، ط ١/٩٨٩م، ص ٢٣.

قال الشاطبي رحمه الله^(١)، فالإمام ياسين أدرك تماما أن قضايا العلم والمعرفة لا تخرج عن إطار التعبد الناظم للشرائع كلها، قال الشاطبي: «الشرع إنما جاء بالتعبد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام»^(٢)، فكلما صح القصد صح العلم المتلقى ونفع، وهو لا يخرج عن كونه عملا ناشئا عن الإيمان، وعليه كان الكفر في نظره مانعا من موانع الفهم والتلقي^(٣).

استقراء المعاني الجزئية لبناء المعرفة الكلية

إن من معالم النظر المقاصدي في منهج الإمام ياسين رحمه الله إصراره على التماس المعارف الكلية الناضجة للمعارف الجزئية، وذلك استجابة منه لمقتضى حال واقع الأمة الذي بلغ من التعقيد والتركيب في حاجياته وأسلته ما تتعذر معه الإجابات الجزئية، وهذا ما أعلنه بوضوح في قوله: «لكن الذي نحن بحاجة إليه هو الفقه الكلي الذي يشمل كل العبادات الفردية والمعاملات الجزئية، في نسق واحد يؤدي وظيفة إحياء الأمة وإعادة لها إلى حضن الشريعة وصراف الله»^(٤).

من هذا المنطلق تعامل مع آيات كتاب الله تعالى ملتصقا منها على جهة الاستقراء الأجوبة الكلية الشافية لحال الأمة لتقوى على استئناف النهوض الحضاري، فلم يكن رحمه الله ممن يتبع المعاني الجزئية من ألفاظ آيات كتاب الله تعالى، كما هو ديدان أهل المدونات التفسيرية الذين يتبعون معاني القرآن آية آية من بدايته إلى نهايته وفق المنهج الجزئي، وإنما يستعرض آراء المفسرين من هذا القبيل في الآية أو المقطع القرآني لينتقل بعدها إلى الآفاق الدلالية للآيات في ضوء الكليات الشرعية الشاهدة.

فعند تدبره وتفسيره لما جاء في سورة البلد، ذكر بالمنهج الفقهي الجزئي في استنباط ما بالآيات من المعاني الجزئية الفردية، حيث قال: «فلا نقاش في أن فك الرقبة المؤمنة في الكفارات وغيرها قرينة، والصدقة على اليتيم والمسكين عمل

(١) ينظر الشاطبي، أبو إسحاق. الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ٣، ٢٠٠٣، ٤١/١.

(٢) الشاطبي، الموافقات ٤١/١.

(٣) ينظر ياسين عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ ص ٢٤.

(٤) ياسين، عبد السلام. المنهاج النبوي تربية وتنظيما وزحفا، طبعة ١٩٨٩/٢ بدون المكان،

صالح، وصحبة المؤمنين ومشاركتهم في الحق والصبر انضمام للجماعة مأمور به، الأحكام التفصيلية باقية على وجهها»^(١)، فهي جزء من مدلول الآيات وليست نهاية مدلول الخطاب الإلهي الحاكم المرجعي على الزمان والمكان والحال، يقول رحمه الله: «للفقيه أن يدرج فك الرقاب في باب الكفارات، ويديرج إطعام اليتيم والمسكين في باب الصدقات، ويديرج انضمام المؤمن للجماعة في باب الوعظ والرقائق.»^(٢)، لكن منشود الإمام من النظر الكلي المنهاجي لا يسعه «ما يسع الفقيه، لا يسعه أن يقف عند ذلك التصنيف. وإلا ضاعت من أمامه معاني النداء والاستجابة والعقبة والاقتحام»^(٣)، فقيمة المعاني الجزئية المستنبطة في نظر الإمام ياسين بمقدار اندراجها في سلك الفقه الكلي؛ حيث يقول: «وما فرعوا من الأحكام ثمرة مذكورة مشكورة إن لم يتعارض شيء منها مع منهاج السنة الكلي: الشورى والعدل والإحسان»^(٤).

وعند بيانه مفهوم «الدرجة» في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَىٰهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، ذكر أن التفسير الفقهي التاريخي لمفهوم الدرجة لا ينفك عن الشرط الاجتماعي والثقافي الذي يعيشه، وعن الحاصل والممكن في زمنه،^(٥) فهذا الحافظ ابن كثير يرى أن الدرجة في الآية «في الفضيلة والخلق والخلق والمنزلة وطاعة الأمر والإنفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة»، وذكر الإمام الطبري في معنى الدرجة «يطعن الأزواج الرجال، وليس الرجال يطعونهن»، وذكر القرطبي أقوالاً كثيراً منها: «الإمرة والطاعة»، ومنها «الliche»، وغيرها.

وعقب الإمام على تلك المحامل الجزئية لمفهوم الدرجة بقوله: «هذه «الدرجة» التي أعطاها الله عز وجل للرجال على النساء بصريح النص القرآني هي ترجيح لكيفة الرجال في ظاهر الأمر، وهي إنما هي تثقيل لميزان الرجل

(١) ياسين، عبد السلام. مقدمات في المنهاج ص ٥٧.

(٢) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ٥٨.

(٣) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٤) ياسين عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ ص ١٧.

(٥) ينظر ياسين، عبد السلام. تنوير المومنات ، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت،

بمناقيل المسؤولية، وتخفيف عن أعباء المرأة التي ندبها الشرع لمسؤولية عظيمة يصرح بها الشرع ويلوح إليها ويضمّن أحكام التوزيع للواجبات والمسؤوليات بين الرجل والمرأة»^(١).

وهذا نظر مقاصدي عميق في وضع الأحكام والمعاني الجزئية في سياق معانيها الكلية، إذ المعاني الجزئية مندرجة تحت معانيها الكلية، وإلا تناقضت الأحكام الشرعية التفصيلية في منظور النظرة الجزئية، خصوصا وأنها جعلت المرأة مواطنة من الدرجة الثانية^(٢) حسب تعبير الإمام ياسين، مع أن حديث القرآن عن الزوج والزوجة إنما جاء في سياق البناء الأسري تأسيسا وتدبرا. فالإمام يرى أن النظر في آيات الله يلزم أن يكون نظرا مقاصديا كليا للتمكن من استمداد معالم الهداية لواقع الأمة وحالها من خلال المفاهيم القرآنية الحبلى بالمعاني الشاملة الشافية، ومنها مفهوم «اقتحام العقبة» الذي عده مفهوما قرآنيا ناظما لمعاني مشروع نُحُوض الأمة، حيث يقول: «اقتحام العقبة إذن تحرك إرادي تتعرض له العقبة فتمانعه ويغالبا حتى يتم الاقتحام. حركة الفرد المؤمن في سلوكه إلى الله عز وجل، وحركة الجماعة المجاهدة في حركتها التغييرية، وحركة الأمة في مسيرتها التاريخية»^(٣).

فالمفهوم مركب من شطرين أولهما الاقتحام بما هو سلوك إرادي جهادي في اتجاه مقام الإحسان والاستخلاف، وثانيهما العقبة التي تمثل الواقع الموضوعي الطبيعي والإنساني المطلوب اقتحامه، وبهذا الاقتحام يتقدم الإنسان في مقامات الإيمان إلى ذروة الإحسان^(٤)، ولذلك فالمعاني الكلية لمكونات العقبة وأبعادها الواردة في السورة عند الإمام ثلاثة: أولها: الرق الذي يستعبد الإنسان فإذا هو رهين بإرادة غير إرادته، وثانيها: العوز الذي يقعد بالمسكين واليتيم، تمنعهم المسغبة والاهتمام بالقوت عن كل خير. وثالثها: الانفراد عن جماعة المؤمنين الذين يتأتى السفر والاقتحام في كنفهم^(٥).

(١) ياسين، عبد السلام، المصدر السابق ١/٢٠٣.

(٢) ياسين، عبد السلام، المصدر السابق ١/٥٦.

(٣) ياسين، عبد السلام، مقدمات في المنهاج ص ١٦.

(٤) ينظر ياسين، عبد السلام، العدل الإسلاميون والحكم، مطبعة الأفق، البيضاء، ط

١/٢٠٠٠م. ص ٢٣.

(٥) ينظر ياسين، عبد السلام. مقدمات في المنهاج ص ٥٧.

بعد ذلك نجد الإمام يصوغ المعاني الكلية لمكونات مفهوم العقبة بلغة إجرائية معاصرة تجيب عن أسئلة الزمان، حيث يقول: «فك الرقبة تحرير الإنسان من العبودية لغير الله عز وجل، إطعام اليتيم والمسكين، تحرير لطاقاته لينتج ما به يستطيع أن يطعم المعوزين ابتداءً من إطعام نفسه، الكينونة مع الذين آمنوا تحرير للإنسان المؤمن الفرد من العزلة والخمول والانفراد، وإدماج له في الجماعة ليتحزب لله عز وجل. ثلاث مجالات: المجال النفسي، والمجال الاقتصادي، والمجال السياسي.»^(١).

وإشكال ضبط المعرفة الجزئية بالمعرفة الكلية الذي التزمه الإمام ياسين في منهجه هو الأهم الأعظم الذي بنى عليه الإمام الشاطبي مشروعه التجديدي في كتابه الموافقات حيث قال: «فمن الواجب اعتبار تلك الجزئيات بهذه الكليات عند إجراء الأدلة الخاصة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس إذ محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها، فمن أخذ بنص مثلاً في جزئي معرضاً عن كليته فقد أخطأ، وكما أن من أخذ بالجزئي معرضاً عن كليته فهو مخطئ كذلك من أخذ بالكلي معرضاً عن جزئيه»^(٢).

قراءة التراث التفسيري في سياقه التاريخي

يميز الإمام ياسين بين نص القرآن التأسيسي ونص بيانه التفسيري، فالنص الأول إلهي المصدر، مرجعي أبدي شامل لكل الأزمنة والأمكنة والأحوال بخلاف النصوص التفسيرية التي ترجع إلى الاجتهاد البشري النسبي الذي لا يتجاوز حدود وعائه الزمني والمكاني ثقافة ومعرفة، فهذه النسبية للنصوص التفسيرية تقتضي منهجياً قراءته والاستئناس به وفق شروطه الزمانية والمكانية التي أنتج فيه، دون الانحسار في مذاهبه وحدود أفقه، لأن ذلك في نظر الإمام من شأنه أن يؤدي إلى آفة التقليد التي تحرم صاحبها من الاستفادة المباشرة من كتاب الله. فتقليد الرجال وتقديس اجتهاداتهم ونزع النسبية عنهم في نظر الإمام ياسين من شأنها أن تشكل حجبا معرفية ومنهجية بين المقلد ومصدر الهداية المعرفية

(١) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٢) الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات ٥/٣.

في كتاب الله، يقول الإمام رحمه الله: «لا يستطيع التجرد لحاكمية القرآن المباشرة وتحكيمه المقلدة الذين رقدوا عند قدمي فحل من فحول العلماء الماضين إلى عفو الله إن شاء الله، جاهلين نسبية ذلك الفحل أو ذلك المذهب ومحدوديته في إطار تاريخه، وتاريخ الحكم في عهده، وملازمات اجتهاده السياسية والاجتماعية والشخصية والصراعية المذهبية التي خاضها»^(١).

فالنظر إلى التراث عموماً والتراث التفسيري خصوصاً في نسبيته يتمكن الباحث من النظر النقدي للتراث العلمي باكتساب القدرة على التمييز بمعيار القرآن بين أصيله ودخيله، وبين المفيد المناسب وبين غيره، فنفيد من تراث سلفنا ما ينفع واقعنا وقضايانا مما يشهد له القرآن، يقول الإمام: «في تجارب سلفنا الصالح من العلماء وفي محاولاتهم واجتهاداتهم ما هو حريّ بإثراء تجربتنا، وتقويم محاولتنا، وتوجيه اجتهادنا إن نحن وضعناها جميعاً أمام القرآن والقرآن يحكم، نفحصها على ضوءه، في نشوئها وتسلسلها، وتعاقب أشكالها ومناهجها، وتأثيرها بحركة الحياة العامة وتأثيرها فيها، وإقدامها وإحجامها، ونتائج صوابها وخطئها»^(٢).

فمن باب الإنصاف ومقتضى النظر المنهجي الكلي كان حرص الإمام ياسين على إبراز الواقع البئيس والظرف الخطير الذي عاشه علماء السلف وقاومه بعضهم بفقته العزيمة والاختيار وصانعه آخرون بفقته الترخص والاضطرار، لأن الكل مدفوع عن دائرة الشأن العام «فإن أبدى المجتهد رأيه في «السياسة الشرعية» فإنما هو أمر بالمعروف ناه عن المنكر من خارج وفي حدود لا ينبغي أن يتعداها»^(٣)، وهي الظروف التاريخية الاستثنائية التي تلت الانقلاب الأموي على الحكم الإسلامي، وتطورت سوءاً مع الزمان وازدادت قتامة مع الأحداث، فآل الأمر بعد طول مقاومة ومصابرة حسب الإمام ياسين إلى انحباس الإنتاج المعرفي بإعلان انسداد باب الاجتهاد نهاية القرن الرابع الهجري^(٤).

(١) ياسين عبد السلام، المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) ياسين عبد السلام، المصدر السابق ص ٣٣.

(٣) ياسين عبد السلام، المرجع السابق ص ٧٢.

(٤) ينظر ياسين عبد السلام، العدل، ص ٦٦.

التفسير وفق السياق المعاصر

انطلق الإمام ياسين في النظر في آيات كتاب الله تعالى من واقع حال الأمة وإشكالاته الكبرى ومطالبه الكلية لأنه المقصود الزماني بخطاب الله في كتابه، ومنه تستمد الهداية المطلوبة لهذا الواقع، من أجل الانتقال بالأمة من درك الفتنة تحت الحكم الجبري إلى التمكين الحضاري تحت الخلافة الثانية على منهاج النبوة، فجاءت نظراته التفسيرية بعيدة عن المقاربات النظرية المجردة، ومرتبطة بما يجيب عن أسئلة الزمان الحاضر التي منها انطلق أصلا في مشروعه التجديدي.

وقد أفصح الإمام ياسين بوضوح تام عن أصل مراعاة واقع الأمة في منهج نظره في التراث التفسيري حين قال: «نرجع إلى تأصيلاتهم ناظرين إليها من إزاء القرآن والسنة، ناظرين إليها أيضا من زاوية واقعنا وظروفنا»^(١).

فإدراك الواقع واستيعاب خصوصياته وحيثياته مقدمة لازمة عليها يتأسس إدراك وجه المصلحة المرجو جلبها أو المفسدة المطلوب درؤها من أحكام كتاب الله تعالى، وذلك بناء على أن «شرع الله أينما كانت مصلحة المسلمين. ومن لا يعرف واقع المسلمين ومنابع الفتنة في تاريخه، وحاضرهم في العالم وحضورهم، وطبيعة الصراع الدائر بين الإسلام والصليبية اليهودية، لا يستطيع أن ينزل شرع الله على واقع يستعصي، ويمتنع، وبماطل»^(٢).

ومقتضى القول بمراعاة الواقع وظروفه الانطلاق من إشكالاته وأسئلته في النظر إلى كتاب الله تعالى التماسا للهداية، خصوصا وأن المطلوب منا «تحليل مجتمعاتنا لتشخيص أمراضنا، وإعداد النظرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتنظيمية الكفيل تطبيقها بعلاج الأمة، ضرورة»^(٣)، كما أن زماننا له خصوصيات يفارق بها أزمنة المفسرين والفقهاء من علمائنا، فلزم النظر في كتاب الله بهذا المقتضى، يقول الإمام: «نحن في زماننا نقدر أن ما ضاع منا كثير وأن ما بقي آثل إلى ضياع إن لم نهض للطلب، طلب الإسلام كله، طلب الإيمان بشعبه، طلب الخلافة على منهاج النبوة، طلب الشورى والعدل والإحسان»^(٤).

- (١) ياسين عبد السلام، نظرات في الفقه والتاريخ ص ١٠٩.
- (٢) ياسين، عبد السلام. تنوير المؤمنات ص ٦٥.
- (٣) ياسين، عبد السلام. منهاج النبوي ص ٣٢٩.
- (٤) ياسين عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ ص ٩٦.

وبناء على هذا الاختلاف في الموضوع الذي اقتضى اختلاف المنهج، أو بالتعبير الأصولي اختلاف المناطات التي استوجبت اختلاف الأحكام، راح الإمام ياسين يتتبع مفاصد الواقع التي حلت بالأمة ليرتبها ترتيباً أولوياً ليلتمس لها من كتاب الله تعالى العلاج المنهجي الكلي المنظم، يقول الإمام مقررًا مراعاة الواقع في النظر في كتاب الله: «ولا يكون الاجتهاد فاتحة لعمل مجد إن كان المجتهدون والمقررون لا يعطون للمادة المراد الفعل فيها حقها من الاعتبار.»^(١).

المبحث الثاني: معالم النظر المقاصدي معرفياً

يعد ما تم رصد في المبحث السابق من معالم النظر المنهجي إطاراً حكم نظري الإمام ياسين في آيات كتاب الله تعالى الذي أثمر معارف نوعية تأصيلية اختط منها مشروع المنهاج النبوي، ويمكن تصنيف أهم تلك المعارف على النحو الآتي:

أولاً: المعارف القرآنية الكلية:

١) النظر إلى العدل والإحسان في القرآن مشروعاً حضارياً:

فقد ألفينا الإمام ياسين يقرر بالقطع كلية العدل في الشريعة^(٢)، فيقول: «العدل أم المصالح التي يقصد إليها الشرع. هو صُلب الدين، وحوله تُطَيَّفُ همومُ المسلمين، وبه بعث الله الرسل والنبیین، مبشرين ومنذرين»^(٣)، كما أن العدل في نظر الإمام أساس الصلاح «وركن ركين في صرح الدولة الإسلامية، وعلى إقامتهما مدار صلاح الحكم، والاقتصاد، والشورى، والإدارة، والأمر كله»^(٤)، فلا يحمي «الأمن الاقتصادي والعسكري، والاستقرار السياسي والاجتماعي، سوى العدل الذي يبني ما خربه الظلم، ويحيي ما أماته، ويجرك ما أخمده، وينير ما أظلمه»^(٥).

(١) ياسين عبد السلام. حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، مطبوعات الأفق، البيضاء، ط

١٩٩٤/١ م. ص ٥١.

(٢) فقد تحدث الإمام عن مفهوم العدل الشامل لنظام الحكم وللقضاء وللإقتصاد وللإقتصاد، ينظر دراستنا: مراجعة التراث الأصولي والمقصدي في ضوء الكليات القرآنية عند الأستاذ عبد السلام ياسين، أعمال المؤتمر الأول: مركزية القرآن في نظرية المنهاج النبوي عند عبد

السلام ياسين، استانبول ٢٠١٢ م، ص

(٣) ياسين عبد السلام. العدل ص ٢٠٢.

(٤) ياسين، عبد السلام. في الاقتصاد البواعث الإيمانية والضوابط الشرعية، ط ٢/٢٠٠٣ م،

البيضاء، ص ١٩٠

(٥) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ١٩٧.

كما تتبع الإمام موارد لفظة الإحسان في القرآن فوجدها «غاية الغايات ومحط نظر ذوي الهمم العالية»^(١)، فهي دالة على معاني متعددة شاملة، منها، المعنى الاجتماعي ممثلاً في تحسين العلاقة بخلق الله، ابتداءً بالوالدين ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فالأقربين واليتامى والمساكين والناس أجمعين، كما أمر الحق سبحانه في قوله : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ومعنى المهارة والإتقان كما في قوله صلى الله عليه وسلم : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»^(٢)، ومنها وعلى رأسها المعنى التعبدي، وهو أعلى درجات الدين كما فسرها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». فقد أدرك رحمه الله أن العدل والإحسان ولازمتهما الشورى كليات ناظمة لتفاصيل الشريعة من جهة وإجابات كلية عن عمق الأزمة في واقع الأمة من جهة أخرى، فبالعدل يؤمن مصير الأمة في التاريخ، وبالإحسان يأمن الفرد على مصيره عند ربه.

وسيلة تحقيق هذا المشروع في نظر الإمام ياسين هو مفهوم «الصحبة والجماعة» الذي استقاه على سبيل الاستقراء والتتبع من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويفسر هذا المفهوم بقوله: «لقاء رجل يرييك وجماعة مؤمنة تؤويك تحضنك، حتى يسري بصحبة المرئي والجماعة إلى قلبك وسلوكك أول سلك من أسلاك نور الإيمان، وأول نفحة من عبيره، وأول فيض من مائه»^(٣)، فبذلك يندمج مفهوم الصحبة في مفهوم الجماعة ليشكلا مفهوماً مركباً متكاملًا نظرًا وعملاً، تماماً كما كان الأمر زمن التأسيس النبوي للجماعة الأولى وفق مقتضى الخطاب القرآني الموجه في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

(١) ياسين، عبد السلام. الإحسان: مطبعة الأفق، البيضاء، ط ١ / ١٩٩٨م. ١٨/١.

(٢) مسلم في الجامع الصحيح، كتاب الصيد والذبائح باب الأمر بإحسان الذبح والقتل.

(٣) ياسين، عبد السلام. المنهاج النبوي ص ١٢٣.

وموجب القول بمشروع الجمع بين الصحبة والجماعة تحقيق الجمع بين العدل والإحسان من حيث هو شرط لاقتحام العقبة^(١)، وقد جمع الإمام أبعاد هذه العقبة في أمرين: عقبة في الأنفس وفي آفاق الكون، فلزم الجمع في مشروع الاقتحام بين عقبة الأنفس وعقبة الآفاق لتجاوز سلوك الصوفية الذين زاغوا عن فتنة الآفاق حين اعتزلوا المجتمع^(٢).

أما قبلة المشروع الاستراتيجية فيحددها الإمام في الخلافة الثانية على منهاج النبوة انطلاقاً من البشارة النبوية في حديث الخلافة على منهاج النبوة الذي اتخذته الإمام محور مشروعه ونظيره.

٢) وحدة الأمة أم المقاصد الآن

أصر الإمام ياسين على الدعوة إلى وحدة الأمة باعتبارها الفريضة العظمى التي ينبغي إقامتها ابتداءً في الأذهان حتى يبسر الله قيامها في الأعيان، فقال: «وحدة دار الإسلام - بيت الإسلام - ضرورة ملحة وواجب شرعي وأمل عزيز على الأمة»^(٣)، لأنه السبيل لاستعادة القوة للأمة «ولا قوة إلا بوحدة المسلمين - عربياً ثم عربياً وعجمياً - ولا بقاء في عالم التكتلات لكيان هزيل»^(٤).

والوحدة في نظر الإمام ياسين هو السلك الناظم أصالة للمؤمنين في كل زمان، وأن التفرق داء يطرأ على وحدة المؤمنين لحظات ضعف تمسكهم بحبل الله المتين، يقول: «أمة النبيين والمرسلين أمة واحدة، وأمة المؤمنين لا افتراق بين أجزائها العضوية، لكن الناس في فترة ما بين المدكرين، وفي ضمور الإسلام في القلوب، يتقطعون أمرهم بينهم زُبراً. أي قطعاً خلافاً مذهبية قومية وطنية قبلية. إسلامها في حكم الدم لتلاشي عقيدة التوحيد عندها»^(٥).

فالوحدة خوطب بها المؤمنون خطاب تكليف منذ اللحظة التأسيسية الأولى لهذه الوحدة في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل

(١) يعد اقتحام العقبة المستفاد من سورة البلد مفهوماً مركزياً في الجهاز المفهومي للإمام ياسين، ينظر كتابه مقدمات في المنهاج.

(٢) ينظر ياسين، عبد السلام. الإحسان ١/٩٤.

(٣) ياسين، عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ ص ٤٧.

(٤) ياسين، عبد السلام. في الاقتصاد ص ٢٣٩.

(٥) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ٢١٦.

عمران: ١٠٣]، حيث جمعت الآية - بين الأمر بالاعتصام بعمود الوحدة ومعقدها وهو الحبل القرآني الممدود من السماء إلى أرض - الواقع بعبارة الإمام ياسين^(١)، وبين النهي عن نقيض الوحدة ومنافيتها وهو التفرق، ولعل هذا النوع من الصيغة في طلب الوحدة يمثل أعلى درجة في الانحتمام والإلزام.

وما يؤكد ضرورة هذه الوحدة ورفعها إلى مصاف الأولوية المقاصدية العظمى عند الإمام حال واقع الأمة، وهو حال يختلف عن حال الأمة يوم تحدث علماءنا عن المقاصد دون أن يلحوا على مقصد الوحدة «فهم كانوا يعيشون وحدة شعوب جمعها الإسلام لا تكاد تشعر بالتفرقة التي فرقته الإمارات السَّيْفِيَّة، واللغة والسحنة والقطر. لم يكن يقدر في وحدتهم تلك وجود خلافات مذهبية يعيشون صراعاتها الكلامية أو العنيفة داخل إطار الوحدة لا خارجه»^(٢).

وعليه فرسالة التوحيد إنما تبلغها أمة «واحدة تحمل رسالة للعالمين تبلغها وتجاهد عليها وتتوحد عليها وتحكم بمقتضاها»^(٣).

٣) تحكيم المصلحة الأخروية في الدنيوية:

من المعارف الكلية التي استثمرها الإمام ياسين من تأمله وتدبره في كتاب الله تعالى أن المصلحة العظمى النازمة لما سواها هي مصلحة الآخرة، يقول: «علة العَلَلِ في الشريعة وأم المصالح وآخرة الاجتهاد هي إخراج العباد من داعية الهوى ليكونوا عباداً لله، كما قال الله جلَّ اللهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٤) [الذاريات: ٥٦]»^(٥).

والقول بتحكيم المصلحة الأخروية في الدنيوية عند الإمام ياسين هو من باب تحكيم المقصد في الوسيلة^(٦)، إذ لا تنال المصلحة الأخروية إلا بالمصلحة الدنيوية التي سماها القرآن النصيب في قوله تعالى على لسان قوم موسى لقارون

(١) ينظر ياسين، عبد السلام. العدل ص ٢١٨.
(٢) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ٩٦.
(٣) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.
(٤) ياسين، عبد السلام. العدل ص ١٥٠.
(٥) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ١٦٥.
(٦) ينظر ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ١٦٤.

الحريص على مصلحة الدنيا المنقطعة عن الآخرة: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، قال الإمام ياسين في تعليقه على هذه الآية: «وإن توفيرَ هذا النصيب للعباد ضرورة لكيلا تفتنهم الدنيا بالفقر والمرض والجهل والحاجة عن مطلبهم الأخرى»^(١)

غير أن هذا النصيب إنما يكتسب معناه واعتباره إذا كان منتظما في سلك المقصد الأصلي في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ [القصص: ٧٧]، أما القصد التبعية المترتب عن هذا الترتيب المصلحي فهو ما عبر عنه الإمام ياسين بصفاء قلب العبد من هم الدنيا ومشغلة الرزق بحفظ النصيب من الأمن والعافية والقوت^(٢)، مستدلا على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له»^(٣).

٤) النقد الأخلاقي للعولة المعاصرة

يقف الإمام مع قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمِ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤]، ليستنبط منها معيارا قرانيا أخلاقيا في نقد منتج من منتجات الرأسمالية الغربية، وهي العولة المتوحشة التي تعيث في الأرض فسادا بالمال حرصا عليه واحتكارا واستكبارا في الأرض، ذلك أن «الشح والتعلق بالربح صفتان ملازمتان للفرد الفاسد الذي يقرعه القرآن الكريم، كما أن الخضوع للمال هو لب الرأسمالية التي تعيث في الأرض الفساد»^(٤).

(١) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٢) ينظر ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٣) الترمذي في السنن، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،

باب ٣٠، رقم ٢٤٦٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٩٥٠.

(٤) ياسين، عبد السلام. الإسلام والحداثة، وجدة/المغرب: مطبوعات الهلال، طبعة ٢٠٠٠م،

وعلى مشرحة الحكم القرآني الخلفي من خلال الآية السابقة يعرض الإمام ياسين رحمه الله حالة الاستكبار الرأسمالي المتعاطم المتمثل في العولمة، فيقول: «لا اختلاف بين مثال الرأسمالية الحديثة والأمثلة التي يسردها القرآن الكريم عن الأمم السابقة، فكل الشروط متوفرة: الاستكبار، الإفساد، السطوة والقوة، الادعاء. لذلك لن يلبث العقاب الرباني المناسب لفداحة الجرائم المعاصرة أن يصيب المسؤولين عن الفوضى المعاصرة والجور المعوم.»^(١).

فعله ما حاق من العذاب بتلك الأمم المسرودة في الآية السابقة في نظر الإمام ياسين هي الاستكبار والإفساد في الأرض والادعاء، وهي العلة نفسها التي قامت عليها العولمة، والحكم دائر مع علته كما يقول الأصوليون، والله تعالى يقرر هذه الجدلية بين الحكم السنني والعلة في غير ما آية، ومنها قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].

ويذكر الإمام ياسين الرأسمالية ومنتجاتها محذرا من عموم الحكم الإلهي واطراده على جميع خلق الله، فيقول: «وعيد الله عز وجل موجه إلى العالمين في جميع الأزمنة أن يتراجعوا قبل أن ينهار بهم شفا الجرف في الهاوية. فهل تسترجع الرأسمالية المعاصرة وعيها بعد أن انسدت الآفاق في وجهها، وتغير وجهتها قبل أن يجل العقاب بسببها بالبشرية جمعاء؟ وهل هي قادرة على التحكم في ذاتها؟»^(٢)

ثانيا: المعارف القرآنية التفصيلية

من المعارف التفصيلية اللطيفة النبيهة التي ذكرها الإمام ياسين في سياق تناوله لتفسير جملة من الآيات القرآنية، نذكر على سبيل المثال:

١) ثنائية القوامة والحافظية

وقد استمد الإمام ياسين هذه الثنائية من قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، فلم ينظر الإمام إلى

(١) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق، ص ٢٧٥.

(٢) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

تلك الثنائية نظرة تجزيي وتفريق بينهما، وإنما نظر إليهما نظرة مقاصدية من حيث هي ثنائية متعاضدة متكاملة، فحافظية المرأة حكما ووظيفة ومقصدا هي الوجه الداخلي لوحدة الأسرة، بينما وجهها الخارجي المكمل هو درجة القوامة للرجل، فلا تفهم الواحدة إلا في سياق الأخرى^(١).

أما الدرجة فقد كشف الإمام ياسين عن مقصدها الاجتماعي، فقال: «الدرجة» إمارة في القافلة الاجتماعية الزوجية السياسية. هي بمثابة أمير السفر الذي أوصت به السنة النبوية. إمارة بدونها تكون الفوضى في القافلة، فتضعف، فيجد العدو فيها مغمزا، فيعدو عليها ويمزقها.^(٢)

وأما الحافظية فتتظلمها في نظر الإمام مقاصد شرعية عظمى وكليات ضرورية عليا، أسماها مقصد العبودية لله تعالى الذي ينتظم الرجل في قوامته والمرأة في حافظيتها في سياق رحلتها من الدنيا إلى الآخرة، يقول: «مهمة كبيرة تلك التي تعدل بين قوامة الرجل وحافظية المرأة ليحمل الرجل والمرأة عبئها. هذه المهمة هي عبادة الله تعالى، تلك العبادة المعلولة بخوف العقاب الأخروي ورجاء الجنة ورضى المولى وقربه.»^(٣)

أما المقاصد الأخرى النازمة للحافظية، فمنها حفظ النوع البشري، وحفظ فطرته، وقد أسند الله هذه المهمة الجليلة للمرأة بمقتضى حافظيتها، يقول الإمام: «النساء بفطرتهن يحفظن استمرار الجنس البشري بما هن محضن للأجنة، وحضن للتربية.»^(٤)، ففي ذلك حفظ الدين والنفس والعقل، يقول الإمام: «الدين الذي هو رأس المقاصد وغاية الغايات، يُرَضَع من ثدي الأمهات الصالحات القانتات الحافظات. وتعهّدهن لجسوم الأطفال ونباتها وغذائها وصحتها كتعهدهن للعقل الناشئ، يأمرن بالحسن، ويزجرن عن القبيح، ويجبن عن الأسئلة، ويلقن اللغة»^(٥).

(١) في كتابنا قيد الطبع «مراجعات في التراث المقاصدي والأصولي والفقهي عند الإمام ياسين

كلام مفصل عن هذه الثنائية في الفصل الرابع.

(٢) ياسين، عبد السلام. تنوير المومنات ١/٢٠٣.

(٣) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ٢/٩٩.

(٤) ياسين، عبد السلام. تنوير المومنات ٢/٨٨.

(٥) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ٢/٩٢.

ومن واجبات الحافظية في نظر الإمام حفظ النسب، وهو كلية من الكليات الضرورية الخمس، فأنفس «ما تحفظه نساء الأمة أنساب الأمة... الحفاظ عليها، والعفة، وحفظ الفروج، والتحصن من فاحشة الزنى، واجب مقدس في مقدمة واجبات الحافظية»^(١)، وتكتمل مقاصد الحافظية بمقصد المال المأخوذ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك»^(٢)، فقد رأى الإمام في نص الحديث ما يشير إلى كفاءة المرأة في تدبير الشأن المالي والاقتصادي للأسرة^(٣).

٢) مسألة تعدد الزوجات

نظر الإمام رحمه الله إلى المسألة وفق منهجه المقاصدي بإنصاف، فميز بين ممارسات الناس لمسألة التعدد في سياقاتهم الاجتماعية والثقافية، وبين ما تأصل في شريعة الله حكما ومقصدا، فلم يغض الطرف عن مآسي المرأة وظلمها عبر قرون من الزمان باسم مشروعية التعدد، حين كانت تستبدل المرأة كما تستبدل الأحذية^(٤)، ورأى أن في دعاوى أهل التغريب من الحداثين والعلمانيين في مناهضة تعدد الزوجات الكثير من الصواب الذي أريد به باطل، من حيث ما لحق المرأة من صنوف الظلم بسبب التعدد الظالم من الرجل المستهتر، لكن ليس ذلك من الشريعة، قال رحمه الله: «فإن استغل بعض الرجال هذه التوسعة الشرعية ليُشبعوا أنفسهم لذة ويشبعوا النساء ظلما فالحيث منهم لا من الشريعة»^(٥).

فتعدد الزوجات في نظر الإمام من حيث هو مباح^(٦) في الشريعة الإسلامية بمقتضى قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]، ومن حيث موقع المسألة في النسق التشريعي العام فهو حل استثنائي لحالات استثنائية، لما يمكن أن يلقاه الرجل، أو يعانیه المجتمع

(١) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ٩١/٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩٥/٨ بسند فيه أبو معشر وهو ضعيف، لكن له شواهد

تقويه، منها ما ذكره الألباني في صحيح النسائي ضمن السلسلة الصحيحة.

(٣) ينظر ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٤) ينظر ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ٣٣/١.

(٥) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ١٨٩/٢.

(٦) ينظر ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ١٩٠/٢.

من مشاكل: كأن تقوى في الرجل «الحاجة فلا تكفيه امرأة واحدة، أو تمرض وهو صحيح، أو تعقم وهو يطلب الولد. والمجتمع يربو فيه عدد النساء على عدد الرجال، فتجيء شريعة التعدد لتصون حصّة منهن عن العنوسة والشارع. تكون شريعة التعدد هي الحل الوحيد إن حصدت الحربُ الرجال كما حدث في الحربين العالميتين في قرن العجائب والعنف»^(١).

وقد يرتقي حكم التعدد في نظر الإمام إلى مرتبة الضرورة «لحل مشاكل خاصة، ضرورة لوقاية النشء وكفالتة. إنه حفاظ على الذرية أن تضيع في حضن أم زانية مهما أصبحت الأم الزانية في المجتمع الدوايي محطاً للتكريم»^(٢)، وهذا خلاف لمن يجعل التعدد في الإسلام أصلاً وزواج الواحدة استثناء، فلا يعدل عن الأصل إلى الاستثناء إلا لضرورة^(٣)، وخلاف لمن يذهب إلى إنكار تقييد التعدد إلى حد اعتباره بدعة ضالة^(٤).

وهكذا عالج الإمام رحمه الله قضية التعدد معالجة مقاصدية تربوية بنائية على نحو غير مسبوق في حدود علمي، فأبان عن حكم المسألة فقهيًا، وعن وظيفتها في النسق الاجتماعي العام، وعن المقاصد الشرعية المرجوة منها.

٣ مفهوم البيعة:

لقد تتبع الإمام مفهوم البيعة المؤصل من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، ومن خلال قوله صلى الله عليه وسلم في الحت على طاعة من نبايعه صادقين مختارين: «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه ما استطاع»^(٥)، وغيرها من النصوص

(١) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ١٨٩/٢.

(٢) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٣) ينظر الطويل، محمد بن مسفر. تعدد الزوجات في الإسلام ص ٨.

(٤) ينظر أبو زهرة، محمد. تنظيم الإسلام للمجتمع، طبعة ١٣٨٥هـ، القاهرة، ص ٧٧-٧٩.

(٥) مسلم في الجامع الصحيح، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش، رقم

القرآنية والأحاديث النبوية كثير، فألفى البيعة عقدا مقدسا متبادلا بين الحاكم والمحكوم، قال الإمام ياسين: «عقد مبادلة بشروط يقبلها الجانبان»^(١)، وهو عقد أسسه القرآن وفصلته ونفذته السنة من خلال المبايعة بين الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة.

وميز بذلك الإمام بين المفهوم المؤصل في الشرع كتابا وسنة وسيرة، وبين المفهوم المبدل في التاريخ أحداثا ووقائع، فانتقد بعض الصور التطبيقية المعاصرة لمسألة البيعة، حيث أكد أن البيعة: «ليست شكلية من الشكليات، وإنما هي أمر يُبرم في غاية الجدية والصرامة»^(٢)، كما أنها «ليست مجرد عقد سياسي مدني، بل هي عهد بين ذمم مؤمنة تندرج فيها شروط بيعة النساء»^(٣) باعتبارها الشروط الأساسية، وتضاف إليها الشروط التنظيمية الأخرى، من ضمنها قول الحق في كل الظروف، أي معارضة المنكر. ففي مقابل واجب الطاعة الذي تحمّله المبايع واجب آخر يوازنه هو واجب قول الحق»^(٤).

(١) ياسين، عبد السلام. المنهاج النبوي ص ٩٨.

(٢) ياسين، عبد السلام. العدل ص ١٠٨.

(٣) وهي الشروط الواردة في سورة الممتحنة في قوله تعالى: «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات

يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرفن ولا يزينن ولا يقتلن أولادهن ولا ياتين بهتان

يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف، فبايعنهن واستغفر لهن إن الله

غفور رحيم» (الممتحنة: ١٢)

(٤) ياسين، عبد السلام. العدل ص ١٩٧.

خاتمة

في ختام هذه البحث في فضاء النظر المقاصدي الذي يصدر عنه الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله في تفسير وتأويل آيات كتاب الله تعالى، أود أن أقرر ما خلص إليه البحث من نتائج على النحو الآتي:

- لم يكن للإمام تفسير كامل للقرآن بالمعنى المعهود عند المفسرين، لكن كل ما كتبه في صياغة مشروع نظرية المنهاج النبوي إنما استمدته من القرآن أصالة ومن السنة تبعاً، بعد معايشة دائمة للقرآن تلاوة وتدبراً وتمثلاً واستمداداً، إيماناً منه وبقيناً أن هدى الله في القرآن هو الهدى.

- مما ميز الله به الإمام رحمه الله أنه كان ينظر في كتاب الله نظر مفتقر مضطر إلى عطاء مولاه لا نظر مستظهر يستطرد معارفه، مدركاً أن الاستمداد من معين الله إنما يحصل من باب العبودية والافتقار، لا من باب الاعتداد بالمعارف والأفكار، لذلك ألقيناه يلح على الامتثال والاحتكام للقرآن في كل شيء مع التحرر من الوسائط المعرفية والحجب العقديّة، فذاك هو شرط التلقي والعطاء، وإلا كان الاستظهار وحصل الادعاء.

- كان الإمام رحمه الله ممن يعظم كتاب الله مبنياً ومعنى يبحث عن المعاني الكبيرة والمقاصد العظيمة الثابوية في ألفاظه وجمله، ولا يقف عند ظواهر النصوص ما لم تكن مرادة، وذلك بحثاً عن الأجوبة الشافية الوافية للأسئلة الحارقة المنبعثة من واقع الأمة المقهور المنفصل عن مستقبلها المطلوب، فوفق رحمه الله في استمداد معارف وقضايا نوعية شافية لكثير من أدواء الأمة.

- لم يكن الإمام رحمه الله في استمداده من كتاب الله من أهل التجريد في فضاء تأويل النصوص بعيداً عن سياق واقعه، وإنما كان يبحث عن الهداية المطلوبة لحال الأمة ومشاكل الإنسانية أفراداً ومجموعاً، فكان يستمد من مباني القرآن المفاهيم المفتاحية في التحليل والتعليل كالمنهاج واقتحام العقبة والعدل والإحسان وغيرها، كما يستمد من معانيه المقاصد الكبرى، وعلى رأسها مشروع العدل والإحسان على سكة المنهاج النبوي الذي يمثل استئناف النهوض الحضاري للأمة في أفق الخلافة الثانية الموعودة.

والحمد لله رب العالمين

لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، رياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط ١/٢٠٠٢.

الترمذي، أبو عيسى محمد، الجامع الصحيح للترمذي، بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٢م.

رفيع، محماد.

- مراجعة التراث الأصولي والمقصدي في ضوء الكليات القرآنية عند الأستاذ عبد السلام ياسين، أعمال المؤتمر الأول: مركزية القرآن في نظرية المنهاج النبوي عند عبد السلام ياسين، استانبول ٢٠١٢م.

- مراجعات في التراث المقاصدي والأصولي والفقهية عند الإمام ياسين، كتاب قيد الطبع.

أبو زهرة، محمد. تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة: طبعة ١٣٨٥هـ.

الطبري جامع البيان في تفسير آي القرآن، بيروت: دار الفكر ١٤٠٥هـ بدون رقم.

الطويل، محمد بن مسفر. تعدد الزوجات في الإسلام، إدارة الدعوة والإعلام.

مسلم، أبو الحسين بن الحجاج. الجامع الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي بدون تاريخ ولا رقم الطبعة.

الشاطبي، أبو إسحاق. الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ٣، ٢٠٠٣م.

ياسين عبد السلام:

- الإحسان، البيضاء: مطبعة الأفق، ط ١ / ١٩٩٨م.

- تنوير المومنات، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ط ١/٢٠٠٣م.

- الحوار مع الفضلاء الديمقراطيين، البيضاء: مطبوعات الأفق، ط ١/١٩٩٤م.

١٦٨ معالم النظر المقاصدي في آي الكتاب عند الإمام عبد السلام ياسين

- المنهاج النبوي تربية وتنظيمًا وزحفاً، ط ١٩٨٩/٢.
- مقدمات في المنهاج، المغرب: مطبعة الأمة، طبعة ١٩٨٩/١ م.
- نظرات في الفقه والتاريخ، المحمدية: مطبعة فضالة، ط ١٩٨٩/١ م.
- العدل الإسلاميون والحكم، البيضاء: مطبعة الأفق، ط ٢٠٠٠/١ م.
- في الاقتصاد البواعث الإيمانية والضوابط الشرعية، البيضاء: ط ٢٠٠٣/٢ م.